



منهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية – بقدر المستطاع – ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة . وتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ، ثم اختيار موضوع البحث ، وجمع الأصول والمصادر ، وإثبات صحتها ، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه ، وتحريّ نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ، ونقدها نقداً باطنياً لإيجابياً ، وسلبياً ، وإثبات الحقائق التاريخية ، وتنظيمها وتركيبها ، والاجتهاد فيها ، وتعليلها ، وإنشاء الصيغة التاريخية ، ثم عرضها عرضاً تاريخياً معقولاً .

وينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، إذ أن هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة ، مثل ضباب الأدلة وانطماس الآثار ، ومثل الأغراض والمصالح . ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف

الحقيقة المطلقة في الماضي أو الحاضر ؟ وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعنى الصحيح ، في حدود إمكانه .

وحيثما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ ، لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه ، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره ، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت . وآثار الإنسان كلها ، تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ . وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها ، إلى أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها .

ومن الأمثلة التي تساعدنا على إدراك ما يواجه المؤرخ من الصعوبات أن بعض آثار الإنسان قد تُشيد للمبالغة والتعظيم ، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية ، والتي لا تدلّ حتمًا على أنه أصبح سيد أوروبا على الدوام ، أو النوط الذي ضربه تذكيرًا لنزوله في إنجلترا ، مع أن ذلك لم يحدث تاريخيًا ، وسبق هذا النوط كذكرى لأمل لم يتحقق ؛ أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد ، مع أن ذلك لا يحدث إلا نادرًا ، والأغلب أن الأسود هي التي تفتك بالرجال ، ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع ، ولكن ذلك معبراً عن الحقيقة * . وأحيانًا قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة ، سواء أكان ذلك بقصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة ، أم من أجل الشهرة ، أم للتجار والكسب . وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان ومخلفاته بروح النقد والحذر ، وكما سنعرف أشياء من ذلك في فصول تالية .

وتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس الجوهرية . فأولاً: ينبغي أن يُفحص نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته ، أي نقوش أو آثار قديمة معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها ، أي أصول ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية وثبت أنها غير مزيفة ، وأن معلوماتها صحيحة ، وأنه

لم يسبق نشرها ، أو على الأقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية ؟ أم أن المادة التي اعتمد عليها الباحث هي مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية ؟

وثانياً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناءً على قدرة الباحث على الدرس والبحث ، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر والمراجع ، وطريقته في استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها . ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق بحسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط . وأحياناً يضطر الباحثون في التاريخ إلى وضع افتراضات مختلفة لمحاولة فهم مسألة تاريخية ، تواجههم فيها غوامض وفجوات . وأحياناً يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية الخلق أو السياسة أو الاقتصاد ، وبذلك تأتي كتاباتهم متفاوتة أو مختلفة . على أن ذلك كله يقدم للمؤرخ آراء ووجهات نظر مختلفة متفاوتة عن عصر أو ناحية معينة ، ولا يمكن أن يحتكر أحدها صفة الحقيقة ، وهي كلها تعطى للتاريخ الحركة والحياة . وتجعل البحث التاريخي مستمراً على الدوام ، باحتمال ظهور أدلة جديدة تلقى ضوءاً جديداً على ما قد يكون غامضاً أو مبهمًا من أحداث التاريخ . وبالعكس عدم الاختلاف وعدم التفاوت يسببان الجمود والركود في دراسة التاريخ ، وفي سائر ألوان العلوم والمعارف ، وفي شتى مظاهر الحياة على وجه العموم .

وثالثاً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناءً على بُعد الباحث عن التحيز والأهواء ، ومطابقته للواقع بقدر المستطاع . وأحياناً يتأثر الباحث بروح عصر معين ، مثل عصر الحروب الصليبية أو عصر الانقلاب الصناعي أو نمو الديمقراطية أو ظهور الاشتراكية . . . فيكتب وهو يحاول إخضاع الموضوع المعين لرأيه وفكره . والكتابة التي يطعن فيها كاتب مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية أو العكس ، لا تُعدّ في إطلاقها صحيحة . فالكتابة التي يتعمد فيها الكاتب أن يتخذ اتجاهًا معينًا ، قد تُعدّ تاريخاً لنوع من التفكير أو النزعات الإنسانية الجديرة بالدراسة ، ولكن لا يمكن أن يُعدّ ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية ، بالنسبة لما تناولته من الموضوعات .

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناءً على ثقافة

الباحث ، وإمامه بطريقة البحث التاريخي ، وبناءً على استعداداته الشخصية وملكانته . وكثير من كتب التاريخ تُعدّ من أمتع ثمرات العقول لنضج عقلية المؤرخ ، وثقافته الواسعة ، وخبرته الوطيدة ، وتبصّره ، ونجاحه في إعطاء وحدة واضحة جامعة ، وذلك بعكس كثير من الكتب التي تُنسب للتاريخ ظلمًا وافتئاتًا ، والتي يكتبها مَنْ لا يفهم التاريخ ، ومَنْ لا يملك النقد ، ومَنْ لا يتصف بالصبر والجلد والصدق ، ومَنْ لا يطلب سوى المنفعة . ولن تزيد مثل هذه الكتابة عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب . وتصبح مثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها ، وقد لا تساوى الورق الذي طُبعت عليه .

ويلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء ، فيأخذ الصدق ، أو أقرب ما يكون إليه ، ويطرح جانباً ما ليس كذلك . وإذا أعوزت المؤرخ ملكة النقد سقطت عنه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة . وليس بهذا يُدرس أو يُكتب التاريخ .

وينبغي على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور ؛ وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب ، وأن يكرس نفسه لعمله العلمى فى صمت وسكون ، من دون أن يوزع جهده هنا وهناك ، ودون أن يقوم بأعمال أخرى ، نافعة بغير شك ، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه ، إذ أن الحقيقة العلمية التى قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصنوف المناصب أو تزيد عنها . وهؤلاء العاكفون المتفرغون للدرس والبحث فى كافة العلوم والفنون — ومنهم المؤرخون — هم الذين يقوم على أكتافهم — على نحوٍ أساسى — تقدم الإنسانية وازدهار الحضارة .

ومن الضرورى أن يكون المؤرخ — كغيره من رجال العلم — ذا عقلٍ واعٍ مرتبٍ منظمٍ ، لكى يستطيع أن يميز بجلاء بين الحوادث ، وينسق أنواع الحقائق ، ويفيد بها فى الموضع المناسب ، ولكى يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ فى الزمان والمكان ، ويربط بينها على اتساق وتوافق . وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها ، ويفقد صفته كمؤرخ .

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز . فعليه أن يحرر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة . وهو بمثابة القاضى الذى لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذى يصل إليه من البعد عن التحيز والهوى . وكيف ننتظر مِمَّنْ بلغ إعجابه أو كراهته